الفصل السادس

نظرة ناقدة للتعليم المدرسى فى ضوء الفكر التربوى الإسلامى

يُنظر أحياناً إلى القرآن والسُّنَّة على أنهما ضمن التراث • والواقع أنهما أكثر من هذا ، فكلمة تراث بمعناها الضيق تشير من زاوية ما إلى ميراث الماضى • والقرآن والسنة لم يشرعا للماضى ، أو للحاضر فحسب ، ولكنهما مصدران أساسيان للتشريع للحياة ولتوجيهها فى كل زمان : ماض ، وحاضر ، ومستقبل • ومن ثمَّ فإن إطلاق كلمة « تراث » عليهما يغمطهما حقهما ويبعدهما عن مغزاهما الحقيقى ، وعن رسالتهما الأساسية ، بل يؤدى إلى خطأ فى فهمهما حينما يعتبرهما البعض أموراً سلفية ، أو ماضية ، أو رجعية قد تكون مناسبة أو كانت مناسبة للماضى ، ولم تعد مناسبة للحاضر ، أو قادرة على الوفاء بمطالب الحاضر أو المستقبل : ويمكن أن تطلق كلمة تراث إسلامى على جميع التطبيقات : الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية والتربوية التى طبقت فى ظلهما ، وبتوجيه منهما فى فترة زمنية ماضية • وكذلك على جميع الاجتهادات البشرية الفكرية التى تمت فى ظلهما ، واستمدت منهما موجهات تطبيقية فى جميع نواحى الحياة •

وبذلك يتحدد موقفنا ــ وموقف أى مجتمع فى الحاضر أو فى المستقبل ــ من هذه الأمور • ويتلخص هذا الموقف فى أن القرآن والسنة مصدران لا ينضب معينهما لتوجيه الحياة ، بحيث يمكن اقتباس المضامين والمحتويات ، والتشريعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية منهما • أما موقفنا من « الاجتهادات البشرية » التى تمت فى ظلّ القرآن والسُّنَّة بوحى وتوجيه منهما ، بل اقتباس الكثير منهما ــ فإننا نقف منها موقفين : موقف المقتبس منها لكل ما هو مناسب لعصرنا ، ولمطالبنا الاجتماعية ، وموقف الرافض للاجتهادات البشرية التى ناسبت عصوراً سابقة ، ولم تعد مناسبة لعصرنا ، أو لمستقبلنا •

ونحن فى اقتباساتنا لكل ما هو مثمر ، وصالح ، ومفيد من هذه التجارب السابقة التى تمت فى إطار القرآن والسنة نجتهد فى أن نقيس عليها ، وأن نضيف إليها ما يثرى حياتنا الحاضرة ، وما يمهد لحياة مستقبلة أكثر ثراء ، وتقدماً •

كما أننا فى اقتباساتنا لكل ما هو مثمر وصالح ومفيد ــ من التجارب التى أبدعتها الحضارة المعاصرة فى غير إطار القرآن ، والسنة ــ فإننا نجتهد فى أن نناقش هذه المقتبسات فى ظل هذا الإطار الفكرى الإسلامى المستمد من « القرآن الكريم » ، والسنة الشريفة ، فما استطعنا أن نكيفه لهذا الإطار بحيث لا يتناقض مع مسلمات وقيم هذا الإطار قبلناه ، وما تناقض مع إطارنا الفكرى العام ، والتربوى رفضناه •

وبعد هذا التحليل يمكن أن نجد كثيراً من الحلول لكثير من القضايا ، مثل قضايا التشريع لمجالات الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والتربوية ، وغيرها من مجالات الحياة الاجتماعية ، ومثل قضايا « العلم » المختلفة • فالعلم فى عالمنا الإسلامى حائر مقتبس ، لا يعيش كله فى إطار الفكر الإسلامى • وإنما هو خليط من المقتبسات غير المترابطة بإطار ممّا • ومثل قضايا التعليم : ماذا سيتحدّد فى ظل هذا الإطار بحيث نصفى كثيراً مما يوجد فى مناهج التعليم من متناقضات ؟ بل إن مناهج البحث فى العلوم المختلفة سوف تجد أراضِىَ جديدة ومداخل جديدة للبحث عن الحقيقة ، والوصول إلى المعرفة من أبواب متعددة منها ما هو حسى ، ومنها ما هو عقلى ، ومنها ما هو روحى •

أسس المناهج فى اطار الفكر التربوى الاسلامى :

إن القرآن والسُّنَّة هما المصدران الأساسيان للتربية فى الإسلام • ومنهما تتشكل المناهج التعليمية المختلفة وأهدافها • ويسترشد الاجتهاد البشرى بهما فى صياغة الخبرات المناسبة لكل سن ومرحلة عمرية ، حتى تكون مناسبة لقدرات الناس وإمكاناتهم ؛ بحيث تراعى الفروق بين البشر فى هذه القدرات والإمكانات ، وبحيث تراعى مستوى كل مرحلة عمرية •

ويشتق من هذين الأصلين جميع العلوم التى انبثقت عنهما : وهى علوم التفسير ، والفقه ، والحديث ، والكلام ، واللغة ، وفروعها المختلفة .

كما يشتق منهما أيضاً جميع العلوم التى تدرس الظواهر الدنيوية فى البيئة الطبيعية ، وفى البيئة الإنسانية ، بحيث تدرس هذه العلوم بمناهج البحث العلمية والعقلية فى إطار العلوم القرآنية ، والسنة المحمدية .

ومعنى ذلك أن الإطار الفكرى الإسلامى هو الذى نشتق منه الإطار الفكرى التربوى . ثم بعد ذلك ترتبط جميع المناهج الدراسية بهذا الإطار .

فالقرآن عالم كبير تعيش فى أحضانه آيات تحوى نظريات ، وقصصاً ، وتاريخاً وأدباً ، وبلاغة ، ونحواً ، وفقهاً ، ومشاهد تصويرية فنية معجزة . وعدم التناقض والوضـــوح والعمق ، والإعجـــاز . كما يتسم بالشمول والتكامل ، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . كما أنه فى شموله يتسع ليشمل كلَّ شىء فى الماضى والحاضر والمستقبل . كما يشمل علوم الدين ، وعلوم الدنيا كلها . ففيه مجال ضخم للتربية الخلقية ، والعقلية والنفسية ، والاجتماعية ، والجسمية ، فمن يحفظ آياته يتقوَّم لسانه وفكره ، ومنطقه وعقيدته . ومن يفهمها يصفو ذهنه ، ويعمق تفكيره . ومن يعمل بها تصفو نفسه وتسمو أخلاقه وترتفع صفاته ، وترتقى ملامحه وسماته ، ويرق شعوره ، وتصفو إحساساته . ومن يستوعب بلاغته وصوره الفنية تعمق نفسه ، وتتسع آفاقه ويعظم تفكيره .

ومَن يهتدِ به فى دراسة علوم الطبيعة يصل إلى مكتشفات علمية غير نهائية ، ومن يحتكم إليه فى أمور السياسة ، والاجتماع يجد تشريعات تبعد عن الهوى الإنسانى ، فتنتفى المشـــكلات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والأخلاقية من المجتمع . ومن يعتصم به يجد رباطاً متيناً ، ونسيجاً دقيقاً من الفكر الشمولى المتكامل ، فلا تتمزق أفكارنا ، ولا تتصارع قيمنا ، ولا تستشرى مشكلاتنا الثقافية ، ولا تتمزق أنظمتنا الاجتماعية

المختلفة ، ولا تتبدد طاقاتنا البشرية ، ولا تتمزق أهدافنا ، ولا تضعف وسائلنا .

والسُّنَّة هى أحاديث للرسول ، وأحكام للمواقف والخبرات الحياتية ، وهى أعمال له تُقتدى .

ويقول الله تبارك وتعالى فى أمر هذه الأحاديث والأعمال : « وما ينطق عن الهوى ، إنْ هو إلا وَحْىٌ يوحى ، علَّمه شديد القُوَى »[1] .

ولذلك فهى مصدر « الاقتداء » الأساسى فى بناء « المسلم » خُلقياً ، وفكرياً ، وعقائدياً ، وجسمياً ، وروحياً ، واجتماعيا ، ومعرفيا ... إلخ .

وفى إطار هذا الاقتداء يمكن التعليم المدرسى أن يوجه خبراته التربوية وبينيها ، ويتفرع بتخصصاته المختلفة .

فإلى أى مدى يقترب أو يبتعد التعليم المدرسى فى بُلداننا الإسلامية عن هذه المفاهيم والمعانى والمضامين التى حددناها سابقاً ؟ .

هذا سؤال يقتضينا أن نلقى بنظرة ناقدة إلى هذا التعليم فى إطار الفكر الإسلامى ومفاهيمه التربوية ومضامينه التعليمية الرئيسية .

---

(١) سورة النجم ــ الآيات (٣ ــ ٥) .

التربية المدرسية فى ضوء مفاهيم الإسلام التربوية

من المعروف أن التربية تتم من خلال وسائط عديدة ، وفى أماكن مختلفة ، وتتزاول طول العمر • وأى نظرة ناقدة للتربية لابد أن تتناول هذه الوسائط التربوية كلها ، فى أماكنها وفى استمرارية التربية بها • ولكن المقام لا يتسع هنا لمناقشة جميع وسائط التربية المدرسية وغير المدرسية • ولذلك فسوف نشير إلى التربية المدرسية فى الإطار الإسلامى ومفاهيمه التربوية العامة ، آملين أن نناقش باقى القضايا فى بحوث تالية •

نظرة ناقدة للتربية المدرسية فى ضوء الاطار الاسلامى ومفاهيمه التربوية

إن المدرسة نظام تربوى ؛ تلتقى فيه ، وتصب جميع روافد العملية التربوية وعناصرها من أهداف ، ومنهج ، وطريقة ، وإعداد للمعلم ، وغير ذلك •

والمتتبع لعناصر التربية المدرسية المختلفة فى بلادنا بنظرة دارسة يجدها تبتعد عن مفاهيم التربية فى الإسلام إلى حد كبير •

فإعداد المعلم مثلا لا يتم فى الإطار التربوى الإسلامى ، والمناهج هى الأخرى لا توجه التوجيه الإسلامى ، بحيث تشتق مكوناتها بما يتفق مع هذا الإطار ، والطريقة لا تهتدى بهدى التشريعات الإسلامية • والتلميذ فى كل ذلك لا يحاط بمناخ تربوى إسلامى • ولا يتفاعل مع خبرات تربوية : إسلامية الهدف والمحتوى •

وسوف نناقش بعض هذه العناصر لنرى إلى أى حد تبتعد عن المفاهيم الإسلامية ؛ تمهيداً لمحاولة إبداء وجهة نظر فى توجيهها الوجهة الإسلامية •

اعداد المعـــــلم :

إن الغالبية العظمى من معلّمينا فى مرحلة التعليم الثانوى يعدون من خلال كليات التربية •

والغالبية العظمى من معلّمينا فى مرحلة التعليم الابتدائى يعدون من خلال دور المعلمين والمعلمات ، والغالبية العظمى من أساتذة الجامعات فى الوطن العربى الإسلامى يعدون فى جامعات أوربا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وروسيا السوفيتية وبعض البلدان الدائرة فى فلكها .

وإعداد أساتذة الجامعات لمهنتهم يتم « فى إطار ثقافى مختلف » تماماً عن إطارنا الثقافى . وإذا قلنا فى إطار ثقافى مختلف ، فلا يعنى ذلك أن الاختلاف يوجد فى الإطار الثقافى فحسب ، وإنما يكون المحتوى الثقافى نفسه مختلفاً تماماً عن محتوى ثقافتنا . وهم فى إعدادهم يشكّلون تشكيلا تاماً فى داخل هذا الإطار الثقافى ، ومن خلال محتواه . وذلك بعد أن يكونوا قد هُيئوا وأعِدّوا فى بيئة مناظرة تماماً لبيئة الثقافة الغربية فى جامعاتنا العربية . وهى جامعات تشكلت عناصر الثقافة فيها إلى حد كبير فى غالبها ، واصطبغت بالصبغة الغربية . حتى أن اللغة التى تستعمل فى جامعاتنا لغة غير مفهومة ، وغير متجاوبة إلى حد كبير مع إيقاع حركة المجتمع وأهدافه وتراثه . ولا نقصد باللغة هنا اللغة اللفظية ، وإنما نقصد مجموعة الأساليب والوسائل ، والأهداف التى توجد فى الجامعة التى أنشأتاها تماماً على غرار الجامعات الأوربية دون صبغها بالصبغة الحقيقية لمجتمعنا . وحتى جامعة الأزهر حينما أدخلت ضمن كلياتها مجموعة من الكليات العلمية العملية — كالهندسة ، والطب ، والزراعة ، والتجارة — فإنها لم تستوعب تماماً هذه الصبغة الحقيقية التى يجب أن تصطبغ بها « صِبغة الله ، ومَن أحسنُ من الله صِبغة ونحن له عابدون »[1] .

لقد كان يمكن هذه الكليات مثلا أن تنطلق بالطب ، والهندسة ، والتجارة ، والزراعة ، والتربية مثلا فى إطار إسلامى : طب ، وهندسة ، وتجارة ، وزراعة ، وتربية فى إطار القيم الإسلامية ، والعلم الإسلامى وأخلاقياته . ثم تأتى فى نطاقه حقائق الطب وعملياته ، وحقائق الهندسة

---

(١) سورة البقرة — آية (١٣٨) .

وتطبيقاتها ، وحقائق الزراعة وتجاربها ، وحقائق التجارة ومعاملاتها ، وحقائق التربية وأساليبها .

لقد فُتحت هذه الكليات لرسالة محددة ، هى تخريج كوادر فى إطار الفكر الإسلامى . ولكنها سرعان ما أصبحت صورة تقليدية للكليات الأخرى فى جامعاتنا ، والتى هى بدورها صورة للكليات الجامعية فى بلاد الغرب المختلفة . واكتفى الأزهر بتقرير سنة تمهيدية لبعض الدراسات الإسلامية العامة ، التى لم يجهد واضعوها ، ولا مدرسوها أنفسهم فى إيجاد الصلات بينها وما سوف يُعدّون له فى السنوات التالية .

هذا إذا كانت قد اختيرت المواد فى هذه السنة التمهيدية من المواد التى لها صلات مباشرة بهذه التخصصات ، التى سيقومون بدراستها فى سنوات الإعداد المستقبلة لهم .

لقد كان يمكن أن تكون هناك محاولات لربط مناهج هذه الكليات بإطار أيديولوجيتنا الإسلامية الغنية بعناصر الربط ، ولسنا أقل فى هذا الصدد من دولة كالاتحاد السوفييتى حينما حاولت أن تربط جميع مناهج التعليم بإطار أيديولوجيتها الشيوعية ، أو الاشتراكية الماركسية .

والمسألة إن كانت تبدو أمامنا فى حاجة إلى جهد ، فإن البداية فيها تكون بتجنيد فِرَقٍ من العاملين فى حقل الدراسات الإسلامية ، والعاملين فى حقول الدراسات المختلفة لإيجاد عناصر الربط الطبيعية بين هذه التخصصات فى إطار هذه الأيديولوجية .

لقد كان فى استطاعة الجامعة الأزهرية أن تقـدم لنا نموذجاً صادقاً للجامعات الإسلامية فى قبولها تلاميذها ، وتدريسها لهم ، وفى مناهجها ، وفى قبولها لهيئات التدريس بها ، وإعدادها لهم .

ولكنها حينما أرسلت بعثاتها إلى الخارج لإعداد هيئة تدريس بها لم تراع أى شروط لهذه الرسالة ، أو لتحقيق أهدافها . حتى أنها فقدت أبسط

الأمور التى نعيها فى بداية القرن التاسع عشر ، حينما أرسلنا مبعوثينا إلى الخارج ، وأرسلنا معهم الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى إماماً لهذه البعثة ليوجهها فى أمور دينها وعقيدتها فيعكف هو على دراسة الثقافة الغربية ، ويعرف مقوماتها ، ويعرف إيجابياتها ، وسلبياتها ، ويوجه كوادرنا الجديدة فى بداية القرن التاسع عشر فى ضوء إطار ثقافتنا وتراثنا • ويعود هو ليكون منارة تهدى هذا الشرق الإسلامى ، وتنيره فترة طويلة من الزمان •

أما معلمو المرحلة الثانوية فإنهم يعدون من خلال جامعاتنا التى أشرنا إلى عدم وضوح ملامحها الإسلامية • وبالتالى فهم غير مؤهلين تماماً فى إطار هذه العقيدة الإسلامية • ودراسة مناهج كليات التربية التى يدرسها هؤلاء الطلاب فى جميع التخصصات بل إن دراسة المواد التربوية نفسها يقفنا على بعدها عن فهم هذا الفكر الإسلامى أو الفكر التربوى الإســـلامى •

قد يثور هناك نقاش حول إمكانية القدرة على تحديد هذا الإطار وإمكانية الربط بينه وبين هذه التخصصات الجامعية • وهذا النقاش سوف يكون بسبب عجز مثيرى هذا النقاش عن فهم أبعاد هذه القضية وعن عدم فهم عمق إطارنا الفكرى ، وشموله ، وقدرته على أن يكون إطاراً مرجعياً ، تتحدد تحت لوائه كثير من المفاهيم • كما تقاس فى ضوئه كثير من القضايا ، والأفكار ، لتبيان مدى صحتها أو مدى خطئها •

ويكفى أن نشير هنا إلى الاستغراق الشديد من أساتذة التربية فى دراسة وتدريس النظريات ذات الخلفية المادية والإلحادية • وعدم محاولتهم استيعاب الفكر التربوى الإسلامى • ولا يصدر ذلك منهم عن عجز فى فهمه ، ولكنهم يؤثرون السلامة ويرددون ما درسوه فى جامعات الغرب ، وما ترجموه عن هذا الغرب ؛ ولذلك فإن معظم كتاباتهم ، ومؤلفاتهم هى خليط من ترجمات هذا الغرب الحائر ، ولعل ذلك هو السبب الحقيقى فى حيرتنا وتشـــتتنا الفكرى ؛ والاجتماعى ؛ والتربوى •

أما معلمو المرحلة الأولى ــ أخطر وأهم مراحل التعليم ــ فبعد أن

كانوا يعدون فى الأزهر ، أو فى دور المعلمين العامة ، فى إطار إسلامى تماماً ، حيث كانت تهتم ضمن ما تهتم به بالدراسات الإسلامية واللغوية ، إلى جانب الدراسات العلمية والرياضية وغيرها من العلوم المسماة بالعلوم (العصرية) أو (الحديثة) ــ فإنهم اليوم يعدون من خلال معـاهد أو دور المعلمين والمعلمات ، حيث أبعدوا كثيرا عن هذا الإطار الإسلامى • فلم يعد حفظ القرآن أو إجادة اللغة العربية شرطاً أساسياً للالتحاق بهذه الدور •

وأصبحت الشهادة الإعدادية هى المؤهل اللازم للالتحاق بهذه الدور لمدة خمس سنوات دراسية • والطلبة الذين يلتحقون بهذه الدور ــ خاصة فى السنوات التى امتدت عبر الستينيات ، ومنتصف السبعينيات ــ من ذوى الدرجات المنخفضة فى المواد الدراسية ، بل من ذوى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المنخفضة فى غالبهم •

ولعل ذلك كان من الأسباب الأساسية فى انخفاض مستوى التعليم فى هذه المرحلة ، وانخفاض مستوى خريجى هذه الدور • وترتب على ذلك انخفاض مستوى التعليم الابتدائى الذى يعتبر القاعدة الأساسية لمراحل التعليم كلها • فإلى جانب بعد هذا التعليم عن الإطار الإسلامى بعداً كبيراً ، فإن هذا التعليم قد انخفض مستواه انخفاضاً كبيراً أثّر فى مراحل التعليم التالية كلها ، كما أثر على المجتمع ، حيث إن شرائح لا يُستهان بها من القطاعات المهنية فى المجتمع تتلقى خريجى هذه المرحلة كعمال يدويين • وعمال يتدربون على كثير من المهن المختلفة فى المجتمع • ويمكن أن ندرك مدى الانحدار الأخلاقى ، والانخفاض فى الوازع الدينى ، والاستهانة بقيم العمل ، والإخفاق فى مهاراته المختلفة نتيجة لانخفاض مستوى خريجى المرحلة الابتدائية الذين يلتحقون بسوق العمالة المختلفة • مما لا يجدى معها أى سياسة تربوية أو تعليمية للترقيع بعد التحاقهم بهذه العمالة • اللّهم إلا ببرامج تعويضية جادة من أناس مخلصين ومستوعبين لخطورة هذا الموقف • وهيهات أن يتأتى ذلك لأمة فقدت الإحساس بأهمية التعليم الابتدائى ، أن تهتم بمراكز التأهيل المهنى وبخلق المواطن من خلالها •

مناهج التعليم :

أما مناهج التعليم فهى لا تبنى الإنسان فى إطار الفكر الإسلامى • إذ هى مجموعة من المواد الدراسية المزقة ، والمشتتة التى لا تنتمى إلى إطار محدد • وهى بالقطع لا تنتمى إلى الإطار الإسلامى بكل مفاهيمه ومضامينه التى أشرنا إليها من قبل •

والتربية الدينية أو ما يسمى بالتربية الإسلامية كمادة تقتصر على حفظ بعض الآيات القرآنية ، والتعرف على بعض الفرائض الإسلامية •

والمفروض أن بناء الإنسان بناءً إسلامياً على الفكر الإسلامى الشمولى والمتكامل ، الذى أوضحناه فيما سبق ، يتطلب ألا يكون هذا البناء من اختصاص مادة بعينها ، أو مدرس بعينه هو مدرس الدين ، وإنما النظرة الشمولية للحياة بكامل أنظمتها تتطلب أن تسهم جميع المواد الدراسية فى خبرات شاملة متكاملة فى بناء هذا الإنسان للمجتمع المسلم الذى تحكمه الشريعة والقوانين الإسلامية ، وتسوده النظم الإسلامية بمفاهيمها وقيمها الإسلامية •

ولا تتصف المناهج الدراسية فى مدارسنا وجامعاتنا بالتمزق والبعد عن الإطار الفكرى الإسلامى فحسب ، وإنما يُعالَج كثيرٌ من هذه المناهج بخلفية مادية إلحادية تشكك فى الخالق الأعظم • فغالبيتها تؤسس على مفاهيم مادية منكرة لما فوق المادة • والسبب فى ذلك أننا ندور فى فلك الغرب ونترجم عنه • وفكره يتعارض منذ القرن التاسع عشر مع الدين إلى حد كبير •

إن الإسلام يؤكد على دوائر ثلاث فى المعرفة ، الدائرة الأولى هى دائرة العلوم الطبيعية ، والدائرة الثانية هى دائرة العلوم العقلية ، والدائرة الثالثة هى دائرة العلوم الدينية • وهذه الدوائر الثلاث يؤكد بعضها بعضاً ، ولا تتعارض ، أما الغرب فإنه — فى غالب تفكيره — يقتصر أو يحاول أن يمجد ويقدس العلوم الطبيعية ومناهجها العلمية • وينكر غير ذلك • وفى هذا

تتعارض مع فكرنا ، وقعنا فيه حينما اقتبسنا مناهج التعليم عندنا منه دون تصرف ، ودون إخضاعه وتطويعه لإطارنا الفكرى الإسلامى ، ومفاهيمه ومضامينه التربوية .

والمحلل للمناهج يلاحظ أن التوجيهات الخاصة بها كثيراً ما تشير إلى ضرورة تبغيض الناشئين فى الاستعمار . ولكن هذا الهدف يظل عند مستوى عمومية مبهمة ، لا يتضح معها ما يحيكه الاستعمار من مكائد ، وما يضعه لذلك من خطط للقضاء على « الروح الإسلامى » . وبالتالى لا تخطط المناهج بحيث يتدعم فى الناشئة المسلمين هذا الروح الإسلامى ، وتتكون فيهم عوامل المقاومة لهذا الاستعمار بربطهم بالفكر الإسلامى ، وشموله ، وتكامله .

إن الاستعمار قد حاول التسلل بطريق خفية إلى « التعليم » فى بلاد كثيرة من بلاد العالم الإسلامى مُحاولا خلق « عقلية » تفكر بطريقة مختلفة عن مسار الخط الفكرى الإسلامى . وقد نجح إلى حد كبير فى هذا المضمار ، مبتدئاً بإعداد أجيال من المعلمين تنحصر مهمتها فى تنشئة أجيال من المتعلمين بعيدين إلى درجة كبيرة عن « الروح الإسلامى » وعن التفكير الإسلامى ، وعن المفاهيم والمضامين الحقيقية فى المحتوى الإسلامى .

والدارس الآن لأوضاع الشعوب الإسلامية المعاصرة يدرك تماماً ، ويقرر بدون تردد ، وببساطة شديدة ، أن الاستعمار قد نجح نجاحاً منقطع النظير فى إيجاد بعض المسلمين الذين يحتلون مواقع مؤثرة وكثيرة على امتداد السلطات المختلفة — وبخاصة السلطات التعليمية والتربوية ، المدرسية وغير المدرسية — بحيث يكون هؤلاء قوة هدم للإسلام ولمفاهيمه ، ولفكره ، ولمحتواه ، وتخليته من اللحم والشحم والنخاع ، حتى يبدو هزيلا ، كريهاً محتقراً من أهله ، ومن غير أهله على السواء .

وما يدفع الاستعمار الحديث إلى مثل هذه المحاولات إلا تلك الروح الصليبية التى تجرى فى دماء الغرب الرأسمالى ، أو الشيوعى على حد سواء ،

وتندس فى أعماقهم ، يضاف إليها تلك الروح الصهيونية المعادية للإسلام منذ ظهور دولته الأولى فى المدينة ؛ والتى استمرت تؤازر روح العداء هذه يوماً بعد يوم حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من ضراوة وشراسة . ويضاف إلى كل ذلك الخوف الاستعمارى من الإسلام كقوة روحية لا تقهر ، وقوة مادية إذا وجدت فإن أحداً من القوى المادية لا يستطيع الوقوف فى طريقها بفضل هذه القوة الروحية المعجزة .

وعلى الرغم مما تعرّض له الإسلام من مكائد ؛ وخطط لهدمه ؛ فإن الطاقة الروحية التى يحتويها الإسلام ، أو تحتوى الإسلام ؛ ظلت تؤثر فى مجرى التاريخ البشرى منذ وجوده حتى اليوم ؛ وستظل تؤثر .

وما حركة الإحيــاء المعاصرة إلا دليل على حيويته وقوته الروحية الخالدة . وما محاولات وأد هذا الإحياء بأساليب جدّ خبيثة ، وغير ظاهرة ، إلا دليل على إحساس أعدائه ـــ وهم كثيرون ـــ بقوته ؛ وبضرورة رصـــد الإمكانات الضخمة ، علمية ، أو تكتيكية ؛ أو مالية ، أو بشرية لمواجهته ، ومحاولة وقف مسيرته ، وهم فى هذا موقنون من عجزهم عن مغالبته ؛ ولكنها حلاوة الروح ، أو صحوة الموت ، كما تعلمون .

ومع ذلك فإن مسيرته وصحوته دونهما عقبات وعراقيل وصعوبات لابد أن يجتازها ، وأن يخطط لاجتيازها بأسلوب علمى ؛ ليستطيع أن يواجه العصر بأساليبه . ذلك أنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد ؛ فلا يواجه التخطيط العلمى إلا بتخطيط علمى ؛ وإن اختلف إطار كل من التخطيطين . وفى هذا الاختلاف تكمن قوة التخطيط العلمى فى إطار إسلامى . لأن القيم التى توجه هذا التخطيط وتدفع بعملياته التنفيذية ستظل تمثل القوة الروحية ؛ والدفعة الحيوية لكل عمل شريف أخلاقى . وأخلاقيات العمل والعلم ، والتخطيط والتنفيذ ، والإدارة والمتابعة ؛ وتوزيع ثمار ذلك كله على البشر هى أمور يتفوق فيها الإسلام على ما عداها من أطر أيديولوجية يتم فى ظلالها أى تخطيط معاصر .

والتخطيط للمسيرة الإسلامية يجب أن يتم فى اتجاهين : الاتجاه الأول : تخطيط لمواجهة التحديات الخارجية التى تواجه الإسلام سواء فى صورة محاولات للقضاء عليه ، أو فى صورة محاولات لمحاصرة مده ، وعدم إفساح الطريق أمامه ، متخذة فى سبيل ذلك كل وسائل التشويه لمفاهيمه وأفكاره ، ولمنطلقاته ، وأسسه ، ولتطبيقاته ، ومتخذة فى ذلك إحلال مفاهيم وأسس ، وتطبيقات معادية له مكان مفاهيمه ، وأسسه ، وتطبيقاته فى داخل نطاق العالم الإسلامى ذاته .

والاتجاه الثانى : رسم خطة لمواجهة التحديات الداخلية التى رسخت فى أرض الواقع الاجتماعى فى البلاد الإسلامية ، بفعل كثير من العوامل ، منها الجهل الذى سيطر على الأمة الإسلامية فترة طويلة من الزمن ، بسبب الخلافات الداخلية ، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية ، ومنها الاستعمار وما ترتب عليه من تعميق للجهل ، وإفقار هذه البلاد إفقاراً ثقافياً واقتصادياً ، واجتماعياً وصحياً ، وما ترتب عليه من محاولات لإحلال أفكار ومفاهيم وأسس وتطبيقات معادية له ، ولروحه .

وليس هناك من سبيل فى رسم هذه الخطط وتنفيذها فى أجيال الأمة الإسلامية غير التربية بجميع وسائطها المدرسية ، وغير المدرسية ، وبجميع أهدافها ووسائلها وطرائقها التربوية .

فبناء الأمة بناءً إسلامياً لا يتحقق بمجرد اتخاذ التشريع الإسلامى أساساً للحكم ، وأساساً للمجتمع . هذا وإن كان هذا التشريع الإسلامى يعتبر أحد الأسس الهامة فى بناء المجتمع الإسلامى ، والفكر الإسلامى . غير أن بناء العقلية الإسلامية ، والروح الإسلامى ، يجب أن يبدأا أولا ببناء البشر فيه بناءً داخلياً حتى يتلاقيا مع البيئة الاجتماعية التى يحققها التشريع الإسلامى . وبهذا يعتبر التشريع الإسلامى ، والتربية العقائدية التى تتم فى إطار الإسلام هما الوسيلتان الأساسيتان لبناء الحياة الإسلامية للأمة الإسلامية .

وهذا يتطلب أن نعيد النظر فى التربية التى نأخذ بها فى حياتنا ، بحيث نصفيها من الاتجاهات المعادية للفكر الإسلامي ، وأن نبنى تربية ذات إطار فكرى لا يتناقض مع الفكر الإسلامى ، ولا يتخلف عن المنجزات البشرية التى توصل إليها العقل البشرى فى إطار الاتجاهات الموضوعية العلمية •

وهذا يتطلب أن نأخذ بالعلوم الجزئية المختلفة فى إطار الفكر الإسلامى • وهذا بدوره سيجعلنا حذرين فى الانحراف بالحقائق التى تتوصل إليها العلوم الجزئية لتكوين أطر فكرية مخالفة للإطار الإسلامى • وفى رأيى أن ذلك الانحراف يتلاشى ، ويختفى إذا جعلنا الروابط قوية ، متينة بين دائرة العلوم الطبيعية ، ودائرة العلوم الفلسفية ، ودائرة العلوم الإسلامية ، بحيث يتكون من هذه الدوائر الثلاث سلسلة مترابطة الحلقات يؤثّر بعضها فى بعض تأثيراً دائرياً فعّالا • بحيث تعالج العلوم الطبيعية بكل فروعها معالجة علمية ، بالمنهج العلمى فى إطار الدائرتين الأخْريين : الدائرة العقلية الفلسفية ، والدائرة الدينية الروحية • فليس أخطر على العلوم الطبيعية من أن تظل فى نطاق فكر أو فلسفة مادية تعمى بصرها ، فلا ترى أكثر من حقائقها المادية الحسية التجريبية • ولا تستطيع بذلك الأفق المحدد أن تفسر الكون ، والحياة ، وموقف الإنسان منهما ، وفيهما إلا فى إطار التفكير المادى على النحو الذى تنحدر إليه الحضارة الغربية المعاصرة • ولا تستطيع التربية فى نطاق هذا الانحسار الفكرى إلا أن تكون « تربية قاصرة محدودة » بحدود هذا الأفق الضيق ــ أفق الفلسفة المادية ! • وهذه الاتجاهات التربوية « القاصرة » هى التى اقتبسناها من الغرب بمناهجها الجزئية ، ذات الخلفية المادية « القاصرة » •

ولعلنا هنا نستطيع أن ندرك خطورة ما اقتبسناه فى تربيتنا من التربية الغربية ، التى نشأت وترعرعت فى ظل الفكر المادى الغربى على نظرتنا للكون والإنسان فيه ، وبالتالى خطورة هذا الاقتباس على أهداف ومناهج وظرائق وأساليب التربية فى بلادنا • وعدم وعينا بما تبثه من قيم متعارضة مع قيمنا ، مما يشكل فى النهاية صراعاً حقيقياً فى حياتنا بين ما نعتقد بصحته

ـــ وهو صحيح ـــ وما يفد إلينا خطأ ـــ وهو فى الواقع خاطىء • ذلك أن أية تربية فى مستواها الفكرى والتطبيقى تستند إلى فلسفة ما • فالتربية الغربية التى نقتبسها تستند إلى الفكر الغربى والفلسفة الغربية ، وهى فى مجملها فلسفة مادية عن الكون والحياة والإنسان ، تختلف عن مجمل فكرنا الإسلامى ، وتفسيره للكون والحياة والإنسان ، وأصلها ، وخالقها ، ومصيرها •

وفى الوقت الذى تتعرض فيه مناهج التعليم العام ، والجامعى للنقد من زاوية علمية ، ومن زاوية إسلامية ، حيث يفقد كثير منها عنصر « العلمية » كما يفقد أيضاً عنصر « الصبغة الإسلامية » ، والصياغة فى مظلة الفكر الإسلامى نجد أن الأزهر هو الآخر محل نقد شديد من هذه الزاوية حيث إن قانون تطوير الأزهر ـــ بدلا من أن يحافظ على الصبغة الأخيرة ، ويطور مناهجه فى إطارها ـــ نجده يُدخل تعديلات على مناهج الدراسة بالمعاهد الأزهرية ، لتصبح مثل مدارس التعليم العام الإعدادى والثانوى • وكان ذلك على حساب علوم اللغة العربية ، والعلوم الإسلامية •

كما أباح قانون التطوير التحاق التلاميذ الذين اجتازوا امتحان القبول للإعدادى العام بإعدادى الأزهر ، وحاملى الإعدادية العامة بثانوى الأزهر ، وحاملى الثانوية العامة بكليات الأزهر ، مع تلقيهم سنة تأهيلية لدراسة العلوم الدينية واللغوية •

والمحلل والمدقق لذلك يلاحظ أن القبول بالإعدادى الأزهرى ، والثانوى الأزهرى ، والكليات الأزهرية يمكن أن يتم لتلاميذ لا يحفظون القرآن حفظاً جيداً ، ومعرفة تفسيره ، وقراءاته ، وعلومه المختلفة • وهذا عكس ما كان يحدث فى ظل نظام الأزهر قبل « التطوير » حيث كان التلاميذ الأزهريون يؤدون امتحاناً جاداً فى القرآن كله فى نهاية كل عام دراسى ، أما فى الوضع الجديد فقد اكتفى بامتحان فى قدر يسير من القرآن تحدده كل كلية لطلابها •

وفى الوقت الذى زادت فيه الكليات الجامعية الأزهرية فإنه قد نقصت المعاهد الأزهرية ، فخلق هذا هرماً مقلوباً اضطرت معه معظم الكليات

الأزهرية (فيما عدا أصول الدين ، واللغة ، والشريعة ، والدراسات الإسلامية) أن تقبل الطلاب الحاصلين على الثانوية العامة • فأصبحت الكليات التى قبلت هؤلاء الطلاب بفعل نوع الطلاب الذين قبلتهم ، وبفعل عدم مقدرتها على تعويض إعدادهم الإسلامى مثل نظيراتها فى الجامعات الأخرى كجامعة القاهرة ، وعين شمس ، والإسكندرية • وبذلك أصبح خريجو هذه الكليات وكأنهم لا صلة لهم بالأزهر •

ونتيجة لعدم إدراك رسالة الأزهر فى تعليم أبناء الأمة فقد ابتعد عن تأدية هذه الرسالة فى جوهرها • وفقد الناس هذا الإدراك لعدم إلقاء الضوء الكافى على هذه الرسالة فقل الإقبال على معاهده ، وخاصة بعد أن انخفض مستوى خريجيه •

ونحن لا نعترض على أن توجد جسور بين التعليم الدينى والتعليم المدنى • فهذا فى رأينا أصوب الطريقين لتطوير كل منهما ، هذا فضلا عن أن الثنائية التى نشأت بفعل وجود الفواصل الحادة بين التعليمين يمكن القضاء عليها فى ظل هذه الجسور ، لكن الاعتراض الذى يسجل هنا هو أن تقضى هذه الجسور على التعليم الإسلامى وتقلصه ، فى الوقت الذى تفشل فيه هذه الجسور فى تطوير التعليم المدنى ، حتى يصبح تعليماً تظله العقيدة الإسلامية بإطار فكرى واضح المعالم ، يوجه كل الدراسات العلمية به • وذلك يتأتى عن طريق دراسات إسلامية متعمقة فى ظل هذا الإطار الإسلامى• كما يتطلب أن توجه المناهج الدراسية كلها فى ظل هذا الإطار الإسلامى • حينئذ فقط لا يكون هناك خوف على الأزهر الإسلامى ، بل نكون قد وفقنا فى القضاء على الثنائية الثقافية التى تسببت لمجتمعاتنا الإسلامية لوجود الأزهر ، واقتباسنا للتعليم الحديث ، والإبقاء عليهما بجوار بعضهما دون جسور ، أو تقارب ، كما نكون قد قضينا على السطحية التى يصاب بها خريجو الجامعات المدنية بسبب ضحالة ما يعرفون عن الإسلام وفكره ، وجوهره وعمقه ، كما يصاب بها خريجو الجامعات الإسلامية لعدم قدرتهم على ربط الفكر الإسلامى بالحياة الكونية والطبيعية ، وبالعلوم المختلفة التى تدرس هذه الحياة •